الفتاوى السعدية

تأليف

العالم المحقق

الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي

مكتبة المعارف
الرياض

حقوق التاليف والنشر والطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٨٨ / هـ — ١٩٦٨ / م
الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق خلقه أطوارا ، وَصَّرفهم في أطوار التخليق كيف شاء عزةً وَاقتدارا ، وَأرسل الرسل إلى المكلفين إعذاراً منه وإنذارا . وَالحمد لله ربِّ العالمين، نحمده ونستعينه ، ونستغفره وَنتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنـــا، من يهده الله فلا مُضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله الا الله وَحده لاشريك له ، وأشهدُ أن محمداً عبُده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد : فان الله تبارك وتعالى بعث رسلَه مبشِّرينَ ومنذرينَ ، وأنزلَ معهم الكتاب بالحقِّ والميزانَ ليقومَ النـــاسُ بالقسط ، فيؤدوا ماأوجبه الله عليهم من حقوقه ، وحقوق دينه وعباده ، فبلَّغوا عليهم الصلاةُ والسلامُ رسالةَ ربهم ، وأدَّوا أمانتهُ ، ونصحُوا أممَهمْ حتى لم يُبقوا شكاً ولا رَيباً لذي شكٍ أو ريبٍ . وقد كان أبلغهم بيـاناً وأعظمهم معجزة ، وأعمهم رسالةً خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء ، والطريقـــة المثلى ، ليلُها كنهارِها لايزيغُ عنها إلا هالك ، وأخذتها أمتهُ منه خالصة نقية واضحة ميراثاً مستمراً إلى أن ياتيَ أمر الله، ويأذن الله بخراب هذا العالم،فان الرسلَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ لم يُورثوا درهماً ولا ديناراً ، وانما وَرَّثوُا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر ، فكانت أمته صلى الله عليه وسلم تتوارث علمه عالماً بعد عالِم حتى انتهت الى عصرنا هذا.

وكان من بين العلماء الذين حظوا بهذا التراث وبذله ونشره على الوجـه المشروع من غير ملل ولا اكتراث شيخنا الشيخ (عبد الرحمن بن ناصر السعدي)،

فقد نال ـ ولله الحمد ـ من هذا العلم أوفر حظ ، وما زال دائباً على نشره تعليماً سراً وجهراً بين الطلبة وعامة الناس ، وتصنيفاً للكتب الصغيرة والكبيرة ، وقد بذل مجهوده لارشاد الخلق حتى نفع الله به الخلق الكثير من المواطنين وغيرهم من سائر البلدان ، ثم مضى لسبيله بعد أن قضى حياته على الوصف الذي ذكرنا ، فرحمه الله رحمة واسعة ونفعنا بعلومه ، وجزاه الله عنا جزاء الموفقين الأبرار ، وجعله من حزبه الفائزين .

وبعد وفاته اطلعنا على فتاوى وكتاباتٍ وأسئلةٍ وأجوبة كتبها بيده ، ونعتقد أنها نافعة في بابها وملائمة لوقتنا الحاضر ، ولكثرة المتشوقين من اخواننا الى مراجعتها ، والانتفاع بها ، قيدناها مرتبة على حسب عادة مصنفي فقهائنا الحنابلة رحمهم الله . ولم نعتمد في كتاباتنا هذه من فتاواه إلا على ما رأيناه بخط يده ، ليكون ذلك أوثق ، وأبلغ طمانينة . والله نسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه وسعينا مشكوراً لديه ، ونافعاً لعباده ، فإنه سميع قريب .

القسم الأول

فيما يتعلق باصول الدين والحديث

المسألة الاولى

قوله ﷺ في حديث معاذ المتفق عليه: « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » أي: يخضعوا له محبة بطاعته وطاعة رسوله، فيشمل ذلك اعتقادات القلوب التي ترجع الى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأعمال القلوب التي مرجعها الى الإنابة بالقلب إلى الله في الحب والخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، وتوابع ذلك من أعمال الجوارح التي بعضها أعمال بدنية قلبية: كالصلاة والصيام، وبعضها مالية قلبية: كالزكاة والصدقة، والكفارات والنفقات الواجبة والمستحبة. وبعضها مالية بدنية قلبية: كالحج والعمرة والجهاد، وبعض العبادات متعلق بحقوق الله خاصة، وبعضها متعلق بحقوق الخلق، كبر الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ونحوهم. وإلى أقوال لسانية، كقراءة القرآن، وذكر الله، والثناء عليه، والتحدث بنعمه، والاشتغال بالعلوم النافعة، والنصيحة لعباد الله،

ونحو ذلك مما يقرب الى الله ، وتحقيق جميع ذلك وتكميله ، وحصول تمام مقصوده وروحه هو الإخلاص التامُّ لله في جميع هذه العبادات، بأن يكون الداعي لها ، والحامل للعبد على فعلها ، امتثال طاعة الله ، وطاعة رسوله، وغايتها ومقصود صاحبها ابتغاء فضل الله ورضوانه ، وبذلك يتحقق التوحيد الخالص الكامل وينتفي الشركُ كله . وبذلك تترتب جميع الثمرات التي رتبها الشارع على العبادات من منافع الدين والقلب والبدن والدنيا والآخرة ، والله المستعان .

المسألة الثانية :
في أصول الدين الكبار

سئل عن أصول الدين الكبار على وجه الايجاز والاختصار ، فأجاب : هذا أعظم سؤال ، وجوابه أجلُّ الأجوبة ، لاستدعائه الإتيان بجميع الأصول التي تبنى عليها القواعد الإسلامية والحقائق الإيمانية ، وقبل الشروع في جوابها ليعلم السائل أنيّ لايمكنني أن أستوفي ماتستحق ولا بعض ماتستحق من البسط وبيان الأدلة، ولكن مالا يُدرَكُ كلهُ لايُترك كلُّه،فأقول على وجه الإشارة والإيجاز: لهذا الدين العظيم أصولٌ كثيرة ،ولكن أكبرها وأعظمها هذه الأصول التي سننبه عليها :

الاصل الاول

التوحيـد

حدُّ التوحيد الجامع لأنواعه ، هو : اعتقاد العبد وإيمانه بتفرد الرب بصفات الكمال ، وإفراده بأنواع العبادة . فدخل في هـــذا التعريف:توحيدالربوبيةالذي هو اعتقاد انفرادالرب بالخلق والرزق، وأنواع التدبير ،وتوحيد الأسماء والصفات ، وهو إثبات جميع ماأثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا،من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل ،وتوحيد الالهية والعبـادة وهو إفراده وحده بأجناس العبادة وأنواعها ، وإفرادها من غير إشراك به في شيءٍ منها مع الاعتراف بكمال ألوهيته، فدخل في توحيد الربوبية :إثبات القضاء والقدر،وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنهعلى كل شيء قدير، وأنه الغنيُّ الحميد ، وما سواه فقير إليه من كل وجه . ودخل في توحيـد الأسماء والصفات: إثبـات جميع معاني الأسماء الحسنى لله الواردة في الكتاب والسنة . والايمان بها ثلاث درجات : ايمان بالأسماء ،وإيمان بالصفات ،وإيمان بأحـكام صفاته : كالعلم بأنه عليم ذو علم ، ويعلم كل شيء ، قدير ذو قـدرة ويقدرعلى كل شيء الى آخر، ماله من الأسماءالمقدسة . ودخل فيذلك

إثبات علوِّه على خلقه ، واستواؤه على عرشه ، ونزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا على الوجه اللائق بعظمتهوجلاله ،ودخل في ذلك: إثبات الصفات الذاتية التي لاينفك عنها ، كالسمع والبصر والعلوِّ ونحوها.

والصفات الفعلية وهي كل صفة تعلقت بمشيئته وقدرته كالكلام والخلق والرزق والرحمة ، والاستواء على العرش ، والنزول الى السماء الدنيا كما يشاء ، وأن جميعها ثابتة لله من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ، وأنها كلها قائمة بذاته وهو موصوف بها ، وأنه تعالى لم يزل ولا يزال يفعل ويتكلم ، وأنه فعال لما يريد ، يتكلم بما شاء إذا شاء كيف يشاء ، لم يزل بالكلام موصوفاً ، وبالرحمة معروفاً . ودخل في ذلك : الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأنه المتكلم به حقاً لفظه ومعانيه ، وان كلامه لا ينفد ولا يبيد . ودخل في ذلك : الإيمان بأنه قريب مجيب ، وأنه مع ذلك عليٌّ أَعلى ، وأنه لا منافاة بين كمال قربه وكمال علوِّه ، لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته . ولا يتم توحيد الأسماء والصفات حتى يعترف ويؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة ، من الأسماء والصفات والأفعال واحكامها ، على وجه يليق بعظمة الباري . ويعلم أنه كما لا يماثله أحد في ذاته ، فلا يماثله أحد في صفاته . ومن ظن أن في بعض العقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير معناها المعروف ، فقد ضل ضلالاً مبيناً . ولا يتم توحيد الربوبية حتى يعتقد العبد أن جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأن مشيئتهم تابعة

لمشيئة الله ، وأن لهم قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم ، وهي متعلَّق المدح والذم ، والأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، وأنه لايتنافى الأمران : إثبات مشيئة الله العامة الشاملة للذوات والأفعال والصفات ، وإثبات قدرة العبد على أفعاله وأقواله . ولا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله في جميع إرادته وأقواله وأفعاله ، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة،وهو أن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى . وتحقيق هذا التوحيد وتمامه أن يدع الشرك الأصغر وهو : كل وسيلة يتوسل بها الى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك .

والناس في التوحيد درجات متفاوتة بحسب ماقاموا به من معرفة الله ، والقيام بعبوديته الظاهرة والباطنة ، فأكملُهم من عرفَ تفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه ، وما أخبر به عن مخلوقاته ، وعن اليوم الآخر والجزاء الثابتة في الكتاب والسنة ، وفَهِمَ معانيها فهماً صحيحاً ، فامتلأ قلبه من معرفة الله وتعظيمه وإجلاله ومحبته والإنابة إليه ، وانجذاب جميع دواعي قلبه الى الله ، متوجهاً إليه وحده لاشريك له ، ووقعت جميع حركاته وسكناته خالصة لله تعالى لايشوبها شيء من الأغراض الأُخر ، فاطمأن الى الله معرفة وإنابة، وفعلاً وتركاً ، وَكمَّلَ نفسه بالإخلاص والمتابعة ،وكمَّل غيره بالدعوة

الى هذا الأصل ، ولا يتم له هذا التوحيد حتى يوالي أهل الايمان والتوحيد ، ويتبرأ من الشرك والمشركين ، ويوالي لله ، ويعادي لله ، وتصير محبتهُ تابعة لمحبـــة الله . فنسأل الله أن يتفضل علينا بذلك بمنه وكرمه .

الأصل الثاني

الايمان بنبوة جميع الأنبياء عموماً وبنبوة محمد ﷺ خصوصاً

وهذا الأصل مبناه على أن يعترف ويعتقد بأن جميع الأنبياء قد اختصهم الله بوحيه وإرساله ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه ودينه ، وأن الله أيَّدهُمْ بالبراهين الدالة على صدقهم ، وصحة ماجاؤوا به ، وأنهم أكملُ الخلق علماً وعملاً وأصدقهم وأبرُّهُمْ ، وأكملهم أخلاقاً وأعمالاً ، وأن الله خصهم بخصائص وفضلهم بفضائل لايلحقهم فيها أحد ، وأن الله بَرَّأهم من كل خُلُق رذيل ، وأنهم معصومون في كل مايبلغونه عن الله ، وأنه لايستقر في خبرهم وتبليغهم إلا الحق والصواب ، وأنه يجب الإيمان بهم ، وبكل ماأوتوه من الله ومحبتهم وتعظيمهم ، وأن هذه الأمور ثابتة لنبينا محمد ﷺ على أكمل الوجوه ، وأنه يجب معرفة جميع ما جاء به من الشرع جملة وتفصيلاً

بحسب الاستطاعة والايمان بذلك ، والتزامه ، والتزام طاعته في كل شيء بتصديق خبره ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه . ومن ذلك أنه خاتم النبيين ، قد نَسَخَتْ شريعتُه جميع الشرائع ، وأن نبوّته وشريعته باقيةٌ إلى قيام الساعة ، فلانبيّ بعده ، ولا شريعة غير شريعته في أصول الدين وفروعه ، ويدخل في الإيمان بالرسل الايمان بالكتب ، فالإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الايمانَ بكلّ ماجاء بـــه من الكتاب والسنة ألفاظها ومعانيها ، فلا يتم الإيمان إلا بذلك ، وكل من كان أعظم علماً بذلك وتصديقاً واعترافاً وعملاً كان أكمل ايماناً . والإيمان بالملائكة مع القَدَر داخل في هذا الأصل العظيم ، ومن تمام الايمان به أن يُعْلَم أن ماجاء به حق لايمكن أن يقوم دليل عقلي أو حسيٌّ على خلافه ، كما لايقوم دليل نقليٌّ على خلافه ، فالأمور العقلية أو الحسية النافعة تجد دلالة الكتاب والسنة مثبتة لها ، حاثة على فعلها وعملها ، وغير النافع من المذكورات ليس فيها ماينفي وجودها وإن كان الدليل الشرعي ينهى ويذم الأمور الضارة منها ، ويدخل في الايمان بالرسل .

الأصل الثالث

الايمان باليوم الآخر

فكل ماجاء به الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت ، فإنه من الإيمان باليوم الآخر ،كأحوال البرزخ ، وأحوال يوم القيامة،وما فيها من الحساب والثواب والعقاب والشفاعة والميزان والصحف المأخوذة باليمين والشمال ، وأحوال الجنة والنار ، وصفات أهلها ، وأنواع ما أعده الله فيها لأهلهـــا ، إجمالاً وتفصيلا ، وكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر .

الأصل الرابع

مسألة الايمان

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ماجاء به الكتاب والسنة من أن الايمان تصديق القلب المتضمن لأعمال الجوارح ، فيقولون : الايمان اعتقادات القلوب وأعمالها ، وأعمال الجوارح ، وأقوال اللسان ، وأنها كلّها من الايمان،وأن َمن ْ أكملها ظاهراً وباطنا ،فقد أكمل الإيمان ، ومن انتقص شيئاً منها ، فقد نقص إيمانه . وهذه الامور بضع وسبعون شعبة أعلاها قول « لاإله إلا الله » ،وأدناها

إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان (١) ويرتّبون على هذا الاصل أن الناس في الايمان درجات : مقربون ، وأصحاب يمين وظالمون لأنهم بحسب مقاماتهم في الدين والإيمان ، وانه يزيد وينقص ، فمن فعل محرماً ، أو ترك واجباً ، نقص إيمانه الواجب مالم يتب الى الله ، ويرتّبون على هذا الأصل أن الناس ثلاثة أقسام : منهم من قام بهذه وبحقوق الايمان كلها ، فهو المؤمن حقا ، ومنهم من تركها كلها ، فهذا كافر بالله ، ومنهم من فيه إيمان وكفر ، وإيمانٌ ونفاق ، وخير وشر ، ففيه من ولاية الله واستحقاقه لكرامته بحسب مامعه من الإيمان ، وفيه من عداوة الله واستحقاقه لعقوبة الله بحسب ماضيّعه من الايمان . ويرتّبون على هذا الاصل أن كبائر الذنوب وصغارها لاتصل بصاحبها إلى الكفر ، ولكنها تنقص الايمان من غير أن تخرجه من دائرة الاسلام ، ولا يخلد صاحبها في النار ، ولا يطلقون عليه اسم الكفر ، كما تقوله الخوارج ، أو ينفون عنه الايمان كما تقوله المعتزلة ، بل يقولون : هو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، فمعه مطلق الإيمان . أما الايمان المطلق فينفى عنه ، وهذه الاصول إذا عرفت على وجهها يحصل بها الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة ، ويترتّب

---

(١) هذا لفظ حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

على هذا الأصل أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله (١)، وأن التوبة تَجُبُّ ماقبلها ، وأن من ارتد ومات على ذلك حَبِطَ عمله، ومن تابَ تاب الله عليه؛ ويرتِّبون أيضاً على هذا الأصل صحة الاستثناء في الايمان ، فيصح أن يقول : أنا مؤمنٌ إن شاء الله ، لأنه يرجو من الله تكميل إيمانه فيستثني لذلك ، ويرجو الثبات على ذلك الى الممـــات ، فيستثني من غير شك منه بحصول أصل الايمان ، ويرتِّبون أيضاً على هذا الأصل أن الحب والبغض أصله ومقداره تابع للايمان وجوداً وعدماً ، وتكميلاً أو نقصاً، ثم يتبع ذلك الولاية والعداوة ، ولهذا كان من الايمان: الحب في الله والبغض في الله (٢) والولاية لله والعداوة لله . ولا يتم الإيمان إلا بأن يحب لأخيه مايحب لنفسه (٣) ويترتَّب على ذلك ــ أيضاً ــ محبة اجتماع المؤمنين ، والحث على التآلف

---

(١) أخرج مسلم في « صحيحه » من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً « ياعمرو أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » .

(٢) روى أبو داود في « سننه » عن ابي امامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من احب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الايمان » . وهو حديث حسن بشواهده .

(٣) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

والتحابب ، وعدم التقاطع ويبرأ أهل السنة والجماعة من التعصبات والتفرق والتباغض ، ويرون هذه القاعدة من أهم قواعد الايمان ، ولا يرون الاختلاف في المسائل التي لاتوصل الى بدعة أو كفر موجبة للتفرق .ويترتب على الايمان :محبة أصحاب النبي ﷺ بحسب مراتبهم،وأن لهم من السوابق والفضل والمناقب ما فُضِّلوا به على سائر الأمة ،ويدينون بحبهم ونشر فضائلهم ، ويمسكون عما شجر بينهم، ويعتقدون أنهم أولى الأمة بكل خصلة حميدة،وأسبقهم الى كل خير، وأبعدهم من كل شر . ويعتقدون أن الامة لاتستغني عن إمام يقيم لها دينها ودنياها ، ويدفع عنها عادية المعتدين ، ولا تتم إمامته إلا بطاعته في غير معصية الله . ويرون أنه لايتم الايمان إلا بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر باليد واللسان والقلب على حسب القدرة والاستطاعة ، وبالجملة فيرون القيام بكل أصول الشريعة على الوجه الشرعي .

الاصل الخامس

طريق أهل السنة والجماعة في العلم والعمل

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ويعلمون أنه لاطريق الى الله وإلى كرامته إلا بالعلم النافع ، والعمل الصالح . والعلم النافع: هو ماجاء به الرسول من الكتاب والسنة،فيجتهدون في معرفة معانيها ،

والتفقه فيها أصولاً وفروعاً ، ويسلكون جميع الطرق المعينة على ذلك دلالة المطابقة ، ودلالة التضمن ، ودلالة الالتزام، ويبذلون قواهم في إدراك ذلك بحسب ما آتاهم الله ، ويعتقدون أن هذه هي العلوم النافعة ، هي وما تفرع عليها من أقيسة صحيحة ، ومناسبات حِكميَّة وكل علم أعان على ذلك وآزره ، فهو علم شرعيٌّ ، كما أن كل علم ضاده أو ناقضه ، فهو باطل، فهذا طريقهم في العلم.

وأما طريقهم في العمل ، فانهم يتقربون الى الله تعالى بالتصديق ، والاعتراف التام ، والايمان الذي لاريب فيه بعقائد الدين التي هي أصل العبادات وأساسها ، ثم يتقربون إليه بعد ذلك بأداء فرائضه المتعلقة بحق الله وحقوق خلقه ، مع الاكثار من النوافل ، والسعي بالاحسان إلى الخلق بكل طريق ، وبترك المحرمات والمنهيات تعبُّداً لله تعالى ، ويعلمون أن الله لايقبل إلا كلَّ عمل خالص لوجهه الكريم مسلوكٍ فيه طريق النبي الكريم . ويستعينون بالله في هذه الطرق النافعة التي هي العلم النافع، والعمل الصالح الموصل الى كل خير وفلاح وسعادة عاجلة وآجلة . فهذه الاصول العظيمة هي أصل الأصول، احتوى عليها هذا الجواب على وجه الايجاز ، والاتيان بالنكت الحسان منها ، ولو فصلت وبسطت وذكرت أدلتها لاحتاجت الى شرح كثير ، وكتاب كبير ، والله اعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

سؤال مهم :

إذا كانت حقيقة العبادة ولبُّها مبنيةً على غاية الحب مع غاية الذل ، وقد يوجد من المخلوق للمخلوق حب وذل ، أو يوجد أحدهما. فما الفرق بين ماتعلق بالمخلوق ولم يبلغ رتبة العبادة ، وبين حقيقة العبادة المبنية على الأصلين المذكورين ؟

الجواب: ـ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ـ : اعلم أن هذا سؤال عظيم، له شأن عظيم ، ولا يعرف سر العبودية وحقيقتها، بل لا يعرف التوحيد كله إلا بمعرفة الفرق بين الحب والذل الذي هو عبادة، وبين الحب والذل الذي ليس بعبادة ، ومعرفة الفرق بين الأمرين هو أعظم فُرْقَان يُفْرَقُ به بين الأمور المتباينة والألفاظ المتشابهة ، والمعاني التي بينهـــا من الفرق أعظم ممـــا بين السماء والأرض، وبيان ذلك أن الحب والذل لله تعالى هو عبادته ، وكل قول وفعل واعتقاد اشتمل عليه الدين ، فالتعبد به لله تعالى مقرون بحب الله تعالى والذل له الذي حقيقته الانقياد لشرعه تصديقاً لأخباره ، وتقرباً الى الله بذلك التصديق المشتمل على العلم والمعرفة النافع للقلوب الموصل لها إلى أجل غاية ، وأعظم مطلوب ، وامتثالاً لأمره ، واجتناباً لنهيه تقرباً الى الله ،وطلباً لمرضاته ونيل ثوابه العاجل والآجل، بفعل المأمور، واجتناب المحظور ،فطلبُ التقرب الى الله في ذلك هو حقيقة الحب ، بل هو ثمرة الحب ، لأن العابد لله لما أحب ربه ، طلب السعي بكل

مايقربه إليه ويدنيه منه ، وذلك السعي والعمل هو الانقياد الذي هو ثمرة الذل والتعظيم للرب ، بل القوة المعنوية التي عزم عليها المؤمن وهي التزامه العام لطاعة الله ورسوله بتصديق الخبر ، وطاعة الأمر ، هي حقيقة الحب والذل حيث قال المؤمنون: (سمعنا وأطعنا) فكل ماقاموا به من الدين ، وما عزموا عليه ، والتزموه منه ،فإنه من آثار الحب والذل ، فهذه آثار العبودية ، وثمرتها القيام بالدين كله علماً وعزماً وعملاً ونية .

ولا بد أن يكون هذا الحب والذل ناشئين عن معرفة بأسماء الله وصفاته ، وأن له كمال الأسماء ، وعظيم الصفات التي هي جميع صفات الكمال ونهاية الجلال والجمال، وهي صفات الإلهية ونعوتها، فالله هو المألوه ذلاً وحباً، وتوابع ذلك لما له من هذا الكمال الذي يختص به ، فلا يشاركه في ذلك مشارك ، فجميع محامده التي ذكرها في كتبه ، ونطقت بها رسله، هي صفات ألوهيته التي ألَّهُ المحبون المتذللون لأجلها وعبدوه بسببها ، فعرفوا ماله من العظمة والكبرياء والمجد والجلال ، فخضعوا وذلوا ،وماله من الجمال والكرم والرحمة والجود والإحسان، فامتلأت قلوبهم من محبته ، وفاضت ألسنتهم بالثناء عليه ، وانقادت جوارحهم طلباً لقربه ورضاه وثوابه ، وعرفوا ماله من العدل والحكم ووضع الاشياء في مواضعها ، وإيقاع العقوبات المتنوعة بأنواع

المخالفين ، فخافوا وهبوا وحذروا من معاصيه ، وحيث وقعت منهم على وجه الغلبة ،بادروا بالتوبة والخروج من تبعتها ، وعرفوا ماله من الفضل العظيم والرحمة السابغة ، وأنواع الألطاف ، فاشتاقوا الى كرمه ، وسعوا لتحصيل ثوابه وجوده ، وهانت عليهم المشقات لما عرفوا أنها تفضي بهم إلى أجل الكرامات وأفضل الثواب ،وعرفوا مع ذلك أنه لايأتي بالحسنات إلا هو ،ولا يدفع السيئات إلا هو ، وأن جميع النعم الظاهرة والباطنة كلها منه ، وأن كل شر وعقوبة اندفعت عنهم فبدفعه وحفظه ، وانه الرب على الحقيقة ، كما أنهم هم العبيد المماليك على الحقيقة ليس لهم من أنفسهم إيجاد ولا إمداد ولا إعداد، يلهم الفقراء إليه في جميع أمورهم في خلقهم وخلق جوارحهم الظاهرة والباطنة ، وفي رزقهم وتدبيرهم ، وأنهم مماليك محض ، ليس لهم شيء ولا منهم شيء ، بل كل ماحصل لهم من منافع أو دفع مضار ، فمن الله . فلما عرفوا ربهم ، وعرفوا أنفسهم ، ذلوا وخضعوا لله ، واشتاقوا الى كل مايقربهم منه وما يسترحمون به إلههم ومعبودهم في حوائجهم المضطرين اليها في جميع اللحظات ، فتبين وظهر أن الحب والذل الذي هو عبودية لله، وتألهه له لايشابهه غيره ، ولا يلتبس بسواه وأسبابه وموجباته ، فإنه حب وذل اقترن بالقيام بالدين بحسب حال صاحبه ،واقترن بمعرفة الله وماله من النعوت

العظيمة التي اختص بها وتوحَّد بها ، واقترن بمعرفة العبد بنفسه ، وأنه عبد مملوك مضطر غاية الضرورة الي عبودية ربه ، وإلى تألُّهه لشدة ضرورته وتوقف سعادته على ذلك ولكونه مستحقاً عليه لازماً له من حيث إنه عبد مملوك مأمور منهي ، فكما أن المعبود المألوه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه وكماله فالعبادة المتعلقة به لا يشبهها شيء ، ولهذا كلما قويت هذه الامور في العبد كان أكمل لتوحيده ، وأبلغ في عبوديته لله ، فتمام التوحيد بتمام الإخلاص لله في الاعتقاد والقول والعمل ، وبتمام معرفته لله تعالى إجمالاً وتفصيلا ، وتأصيلا وتفريعاً ، وكلما ضعفت منه هذه الأمور ، ضعف توحيده . ولهذا كان الشرك في الربوبية والشرك في الإلهية ، والشرك في العبودية ، والشرك في أسماء الله وصفاته وأفعاله ، منافياً كل المنافاة للعبودية التي هي غاية الحب مع غاية الذل ، لأن من زعم أن لله شريكا في ربوبيته وتدبيره ، أوله سميٌّ أو مثيل في صفات كماله ، فقد أشرك بربوبية الله ، وساوى غير الله بالله ، بل ساوى المخلوق بالخالق ، والمُعَبَّد المدبَّر ، بالرب المدبِّر ، ونفى خصائص ألوهية الله تعالى التي حقيقتها تفرده بجميع الكمال. ومن أشرك في عبوديته وإخلاصه ، بأن صرف نوعاً من عبوديته لغير الله تعالى ، فقد نقض توحيده ، وأفسد دينه الذي هو الإخلاص المحض (ألا لله الدين الخالص) (الزمر : ٣) فأي حب وأي ذل